

مقال

مولدُ النور
بين التاريخ والشعر والمنثور



أ.د. محمد محمود كالو
جامعة أديامان

المولد النبوي الشريف هو ذكرى سنوية في 12 ربيع الأول حسب أشهر الأقوال عند أهل السنّة والجماعة، وتعد هذه المناسبة عطلة رسمية في عدة دول إسلامية.

يحتفل به المسلمون في كل عام في بعض الدول الإسلامية ليس باعتباره عيدًا أو عبادة؛ بل فرحة بولادة نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبدأ الاحتفالات الشعبية من بداية شهر ربيع الأول إلى نهايته، وذلك بإقامة مجالس ينشد فيها قصائد مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وتكون فيها الدروس عن سيرته، وذكر شمائله المجيدة، ويُقدّم فيها الطعام والحلوى.

وأول من بدأ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف هو رسولنا الكريم نفسه، صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان يحتفي بمولده أسبوعياً وليس سنوياً، وذلك أبلغ في الاحتفاء، وحين سُئِلَ عن صَوْمِ يَومِ الاثْنَيْنِ، قالَ: (ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ) [رواه مسلم]، فهو شكر منه عليه الصلاة والسلام على مِنَّة الله تعالى عليه وعلى الأمة بذاته، وهو أَوْلى الأَيَّامِ بالصَّومِ فيه.

وحسب المحدث والمؤرخ أبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، فإن معين الدين أبا حفص عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي، المعروف بالملاّء هو أوّل من اعتنى بشكل منظم بالاحتفال بالمولد النبوي، فيما يذكر الإمام جلال الدين السيوطي أن أول من احتفل بالمولد بشكل كبير ومنظم هو حاكم أربيل في شمال العراق الملك السُّنّي المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين، ولما قدم الحافظ أبو الخطاب ابن دحية من المغرب ووجد ملكها المظفر يعتني بالمولد النبوي عمل له كتاب: (التنوير في مولد البشير النذير)، وقرأه عليه بنفسه، فأجازه بألف دينار.

كان لسلاطين الخلافة العثمانية عناية بالغة بالاحتفال بجميع الأعياد والمناسبات المعروفة عند المسلمين، ومنها يوم المولد النبوي، وخاصة السلطان عبد الحميد الثاني، حيث كانوا يبدأون بقراءة القرآن الكريم، ثم بقراءة قصة مولد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بقراءة كتاب (دلائل الخيرات) في الصلاة على النبي صلوات الله عليه، ثم ينتظم بعض المشايخ في حلقات الذّكر، وينشد المنشدون، وترتفع الأصوات بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أما في المغرب الأقصى فقد كان السلاطين يهتمون بالاحتفال بالمولد النبوي، لا سيما في عهد السلطان أحمد المنصور في أواخر القرن العاشر من الهجرة، وقد كان ترتيب الاحتفال بالمولد في عهده إذا دخل شهر ربيع الأول، يجمّع المؤذنين من أرض المغرب، ثم يأمر الخياطين بتطريز أبهى أنواع المطرَّزات، فإذا كان فجر يوم المولد خرج السلطان فصلّى بالناس وقعد على أريكته، ثم يدخل الناس أفواجاً على طبقاتهم، فإذا استقر بهم الجلوس، تقدم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزاته، وذكر مولده، فإذا فرغ الواعظ بدأ قوم بإلقاء الأشعار والمدائح، فإذن انتهوا، بُسط للناس موائد الطعام.

أما مواقف أهل العلم من المولد فإن الإمام السيوطي قال: «عندي أن أصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس، وقراءة ما تيسر من القرآن، ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبي وما وقع في مولده من الآيات، ثم يمد لهم سماط يأكلونه وينصرفون من غير زيادة على ذلك؛ هو من البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها، لما فيه من تعظيم قدر النبي وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف«.

وقال ابن الجوزي عن المولد النبوي: «من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام«.

ولما سئل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن عمل المولد أجاب بما نصه: «أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرّى في عملها المحاسن وتجنب ضدها كانت بدعة حسنة، وقد ظهر لي تخريجها على أصل ثابت، وهو ما ثبت في الصحيحين من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدِم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم، فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون، ونجى موسى، فنحن نصومه شكراً لله، فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما مَنَّ به في يوم معين من إسداء نعمة، أو دفع نقمة، وأي نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم، فهذا ما يتعلق بأصل عمله، وأما ما يعمل فيه، فينبغي أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من نحو ما تقدم من التلاوة والإطعام والصدقة وإنشاد شيء من المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة«.

وذكر ابن الحاج المالكي في كتابه المدخل، بأنه: «يجب أن نزداد يوم الاثنين الثاني عشر في ربيع الأول من العبادات والخير شكراً للمولى على ما أولانا من هذه النعم العظيمة، وأعظمها ميلاد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ومن تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم الفرح بليلة ولادته وقراءة المولد«.

مقال

مولدُ النور
بين التاريخ والشعر والمنثور

أ.د. محمد محمود كالو
جامعة أديامان

وهناك من العلماء من يعارض عمل المولد كالإمام تقي الدين أحمد ابن تيمية الذي قال: «إنها من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها مع قيام المقتضي له، وعدم المانع منه ولو كان خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص«.

وقال تاج الدين الفاكهاني: «لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنّة، ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين المتمسّكون بآثار المتقدمين«.

ولمولد الرسول صلى الله عليه وسلم حضور كبير في الأدب العربي، قديمه وحديثه، وفي نصوصه الشعرية والنثرية، بداية من شعر المسلمين الأوائل في صدر الإسلام، حيث كان حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، والنابغة الجعدي، هم أول من أرخوا له شعراً في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وزمن الخلفاء الراشدين من بعده.

ومن يعد لشعر تلك الفترة يلمس بنفسه ظلال المولد النبوي في قصائد معظم شعراء العصر الإسلامي الأول، ومنهم على سبيل المثال الشاعر المخضرم العباس بن مرداس صاحب القصائد الكثيرة في موضوع الاحتفاء بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وبعثته وهجرته، منها قوله:

نَبِيٌّ أَتانا بَعدَ عيسى بناطِقٍ مِنَ الحَقّ فيهِ الفَصلُ مِنهُ كَذَلِكا
أَميناً عَلى الفُرقانِ أَوَّلَ شافِعٍ وَآخِرَ مَبعوثٍ يُجيبُ المَلائِكا

ولعم الرسول صلى الله عليه وسلم أبي طالب قصيدة قالها في هذه المناسبة واصفاً الرسول نفسَه في يوم مولده، وواصفاً آثار هذا اليوم:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوَجْهِهِ ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

ومن ذلك أيضاً ما قاله شاعر الرسول حسان بن ثابت في مدح المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم:

وَقالَ اللهُ قَد أَرسَلتُ عَبداً يَقولُ الحَقَّ إِن نَفَعَ البَلاءُ
شَهِدتُ بِهِ وَقَومي صَدَّقوهُ فَقُلتُم ما نُجيبُ وَما نَشاءُ

ومن يعُد لخطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه يلمس مدى اتساع أثر المولد النبوي على موضوعات خطبه وأفكارها، فقد اعتبرها عليٌّ المعجزة الكبرى للخالق سبحانه وتعالى، وإذا تركنا عصر صدر الإسلام لوجدنا شعر المولد النبوي ينتشر على ألسنة الشعراء الكبار أمثال جرير والفرزدق وقطري بن الفجاءة وغيرهم.

أما البوصيري صاحب البردة المسماة «الكواكب الدرية في مدح خير البرية« فيعتبر هو الشاعر الأبرز في تاريخ مسيرة الرسول ومولده، والدفاع عن دعوته، وشرح أصولها وتفاصيلها، وتعتبر همزيَّته التاريخية خير شاهد على ذلك، انظر إلى قوله وهو يصف قصة ميلاد الرسول وأثرها على قومه وأمته:

لَيْلَةُ الْمَوْلِدِ الذِي كَانَ لِلدِّينِ سُرُورٌ بِيَوْمِهِ وَازْدِهَاءُ
وَتَوَالَتْ بُشْرَى الْهَوَاتِفِ أَنْ قَدْ وُلِدَ الْمُصْطَفَى وَحَقَّ الْهَنَاءُ

وإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث لوجدنا في مطلع القرن العشرين كلاً من أمير الشعراء أحمد شوقي في إسلامياته العديدة، وكذلك شاعر النيل حافظ إبراهيم وأحمد محرم صاحب الإلياذة الإسلامية الخالدة، يؤرخون جميعاً للمولد النبوي الشريف.

وتعتبر همزية أحمد شوقي في قصيدته المعروفة بـ (ولد الهدى) من أبرز القصائد التي ألمحت إلى المولد النبوي الشريف، ويصف أثره في هداية الأمة:

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ
الروحُ وَالمَلَأُ المَلائِكُ حَولَهُ لِلدينِ وَالدُنيا بِهِ بُشَراءُ

وهذه القصيدة اقتفى فيها شوقي نهج البوصيري في همزيته أم القرى:

كيف ترقَى رُقِيَّك الأَنبياءُ يا سماءً ما طاوَلَتْها سماءُ
تتباهَى بِكَ العصورُ وَتَسْمو بِكَ عَلْياءٌ بعدَها علياءُ

كما ظهرت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في النثر العربي الحديث جلياً في عدة أعمال أدبية، منها على سبيل المثال: (عبقرية محمد) لعباس محمود العقاد، و(في منزل الوحي) لمحمد حسين هيكل، و(محمد صلى الله عليه وسلم سيرة حوارية) لتوفيق الحكيم.

ولم يخلُ المسرح أيضاً من سيرة النبي وشخصيته، وذلك خلال عدة مسرحيات منها: مسرحية (ميلاد النبي) لمحمد محمود زيتون، ومسرحية شعرية (النبي العربي في طريقه إلى الطائف) لمحمد عبد الغني حسن، ومسرحية (مولد النور) للأديب علي أحمد باكثير.

وهكذا يتم التعبير عن المولد النبوي الشريف في الأدب العربي بطرق مختلفة سواء كان من خلال الشعر أو النثر أو الخطابة والقصص والمسرحيات، إذ محبة الرسول الكريم شحذت عاطفة الشعراء والأدباء، وأمدتها بشحنات وطاقات لم تلبث أن فجرت إبداعاً غزيراً ومتنوعاً لا حدود لأبعاده وآفاقه، حيث تتبعوا مراحل السيرة النبوية الزاخرة.